العلاقـات الثقافيـة
بين
أباضية جربة وأباضية المغرب الأوسط
في القرنين الرابع والخامس للهجرة

الأستاذ مسعود مزهودي
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة باتنة

قال أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي : " العلم كثير من أن يحصى، ولكن خذوا من كل شيء أحسنه، وتعلموا العلم قبل أن يرتفع، وارتفاعه ذهاب أهله"[1] وقال أبو القاسم يزيد بن مخلد - وهو من علماء الحامة، عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي : " لو علمت مكان مسألة استفيدها ممن فاتني بها لشددت اليها رحلي في مشرق أو مغرب، ولا أخشى أن يعذبني الله إلا على الجهل"[2] هذه مجموعة من النصائح قدمها أبو الربيع (471 هـ) وأبو القاسم للطلبة يحثانهم فيها على أخذ العلم من مناهله، والالمام بمختلف فنونه. وهذه النصائح كان يقدمها غيرهما من شيوخ العزابة في العصور الوسطى. فمنذ أن انتقل الأباضية من امامة الظهور إلى امامة الكتمان[3] انتهج شيوخهم استراتيجية تعتمد على تنظيم الحلقات العلمية في مواطنهم

رغبة منهم في الحفاظ على استمرارية المذهب، بعد أن زالت دولتهم في تاهرت على يد الشيعة سنة 296هـ (909م) .

ونظرا لاهتمام الأباضية - كغيرهم من المسلمين - بالناحية الفكرية ارتأينا أن يكون موضوع هذه الدراسة: العلاقات الثقافية بين اباضية جزيرة جربة وأباضية المغرب الاوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادي عشر الميلادي). ونعتقد أن هذه الفترةوهذا الموضوع لم يحظيان بدراسات علمية أكاديمية رغم أهميتهما.

ولحسن الحظ أن الزمن حفظ لنا ما كتبه الاباضية من مؤلفات تاريخية وفقهية أغلبها مازال مخطوطا، موزعا بين المكتبات الأباضية في كل من مكتبة القطب ببني يسقن بغارداية (الجزائر) ومكتبة معهد الحياة بالقرارة، والمكتبة البارونية بجزيرة جربة، وبجبل نفوسة. وسنحاول في هذه الدراسة أن نبين طبيعة هذه العلاقات من خلال الروايات المتناثرة بين ورقات المخطوطات وصفحات المصادر المطبوعة.

ومن نافلة القول أن نتحدث قليلا عن كيفية تغلغل المذهب الاباضي في الجزيرة. فالمصادر تتفق على أن المذهب انتقل اليها من طرابلس عندما تمكن الداعية سلمة بن سعد ومن بعده حملة العلم الخمسة [4] من نشره بين نفوسة وزواغة وهوارة ومزاتة، وغيرها. وانتشر بفضل الدعاة - الذين استغلوا الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب الاسلامي - انتشارا واسعا في كل من جرجيس وورغمة ومطماطة ونفزاوة وبلاد الجريد وجربة. [5] .

كما انتشر في القيروان خاصة بعد أن استولى عليها الأباضية بزعامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري [6] تلبية لنجدة القيروانيين بطرد قبيلة ورفجومة الصفرية. فابن سلام يذكر أن مفتيين على رأي المذهب الاباضي كانوا بالقيروان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهم: أبو عبد الله، سعيد الحداي، وأبو سعيد عربي، وحارث أبي الغدير مهراني، وسليمان بن جاس، ويوسف الفتاح، وغيرهم. وأغلب هؤلاء كانت لهم

حلقات علمية.[7].

وعرفت جزيرة جربة هي الأخرى بعلماء أجلاء تتحدث عنهم المصادر كثيرا، وتورد المصادر الفقهية فتاويهم. وكانت جربة تابعة للدولة الرستمية في المغرب الاوسط، شأنها في ذلك شأن جبل نفوسة وبلاد الجريد. وكان ارتباطها بالامامة ارتباطا روحيا أكثر مما ترتبط بها ماديا. فقد كان سكان الجزيرة من الأباضية يختارون من يتولى تسيير شؤونهم، فيرسلون باسمه إلى تاهرت فيأتي تعيينه عليهم. ولما أسقطت الدولة استمرت العلاقة الروحية التي تجمعهم باباضية المغرب الأوسط. وقد حاولوا في العديد من المرات احياء امامة الظهور، ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، على الرغم من الثورات الخطيرة التي فجروها في المنطقة كثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، وثورة هوارة. وهي الثورات التي فتتت في عضدهم، رغم الانتصارات الجزئية التي أحرزوها.

ونتيجة لهذه الهزائم المتتالية فكر زعماؤهم في ضرورة انتهاج أسلوب جديد غير أسلوب القوة، فعادوا إلى الكتمان، وعملوا على اقامة المجالس والمدارس في سرية تامة، متبعين سنة امامهم أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي في البصرة، عندما كان يعلم الطلبة. واختاروا الغيران كمراكز للتعليم.

ونشطت الحركة الثقافية خاصة عندما أسس أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي نظام العزابة مع بداية القرن الخامس الهجري. وأصبح عمل المجالس لا يقتصر على التعليم، وإلقاء الخطب والمواعظ والدعوة الى المحافظة على مبادىء المذهب بل تعدتها إلى تأليف الكتب، خاصة الفقهية ونسخها. وصار الاخوان يتبادلون هذه المؤلفات ليستفيد منها كل مريد في مختلف مدن المغرب الاسلامي. وقد تفرغ لهذه المهمة مشائخ الاباضية وعزابتهم في جربة وجبل نفوسة، وبلاد الجريد ووارجلان.[8]

وكان أعظم وأهم تأليف ظهر في هذه الفترة هو "ديوان الأشياخ" الذي اشترك في تأليفه عدد من العلماء الأجلاء الذين كانوا يجتمعون في غار "أمجماج" بجربة. وتذكر

المصادر أن أبا عمران موسي بن زكريا المزاتي الدمري كان السبب في تأليفه، والتكفل بكتابة أجزائه.

يتألف هذا السفر الضخم من تسعة أجزاء كلها في الفقه الاباضي جزء خاص بالطهارات، وجزء في الصلاة، واختصت الأجزاء الباقية في الصوم والزكاة والحج والأحكام والايمان. ويسمى هذا الديوان كذلك باسم "ديوان الغار". وهذا الديوان غير الديوان الضخم المعروف بـ "ديوان العزابة" والذي يعرف أيضا بـ "نوازل نفوسة"[9].

أما عن مؤلفي هذا الديوان فهم:

1 ـ أبو عمران موسي بن زكريا.

2 ـ جابر بن سدرام.

3 ـ كباب بن مصلح.

4 ـ أبو مجبر المزاتي.

5 ـ أبو عمرو النميلي.

6 ـ عبد الله بن مانوج اللماتي.

7 ـ أبو يحي زكريا بن جرنان النفوسي.[10]

هذا وتجدر الاشارة إلى أن تأليف هذه الموسوعة الفقهية لم يكن القصد منه تفقيه اباضية الجزيرة فقط بل اباضية المغرب الاسلامي ككل. فسرعان ما نسخت، وأصبح يعتمد عليها الاباضة في المغرب الاوسط، وبلاد الجريد وجبل نفوسة. وكانت هذه الموسوعة بحق ثمرة الحركة العلمية التي شهدتها الجزيرة، والتي تزعمها الاباضية الوهبية لدحض آراء مخالفيهم من النكارية. فالصراع المذهبي بينهما كان له دور كبير في ازدهار العلم، وكثرة حلقات التدريس. فالمصادر تحدثنا عن تنظيم لحلقات الدروس مما يوحي بأن الجزيرة عرفت في تلك الفترة حركة علمية نشيطة. فقد كانت لأبي مسور يسجا بن يوجين

اليراسني (اليهراسني) حلقة علمية يقوم هو شخصيا بالانفاق على طلبتها.[11] وكان الطلبة يفدون إلى حلقته من مختلف المدن المغربية. وامتازت حلقته بالمناظرات بين الوهبية والنكارية. وكان وهبية المغرب الأوسط وجبل نفوسة ينصرون اخوانهم من الهوبية في الجزيرة.[12]

كما اشتهر فيها أبو صالح بكر بن قاسم الذي يصفه الدرجيني بقوله : " كان أحد من يوصف بالاجتهاد والتصميم."[13] ومنهم كذلك أبو موسى عيسى بن السمح الزواغي "شيخ أهل الاخلاص والتقوى المعتمد على قوله في الفتوى، والمتقدم في فنون العلم".[14]

وبرز من بني يهراسن - سكان الجزيرة - علماء نبغوا في الفقه مثل: أبو محمد ويسلان، وأبو زكريا وأبو بكر بن يحي. وقد وفد اليهم الطلاب من كل جهة. فكان أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي صاحب كتاب السير، ويعقوب بن يعدل، ومصالة بن يحي من خريجي حلقة أبي محمد ويسلان.[15]

كما تأسست مدارس كثيرة على نفقة العلماء ورعايتهم. فقد كان أبو زكريا فصيل بن أبي مسور يقوم بالتدريس ، وفي نفس الوقت كان يجلب العلماء إلى مدرسته، وينفق عليهم من ماله الخاص. كما ينفق على تلاميذه بأن يوفر لهم المأكل والمسكن، خاصة وأن أغلبهم غرباء على الجزيرة.[16]

وعرف أبو عمرو النميلي بعلمه الغزير. فكان ضمن مجموعة العلماء الذين كانوا يسيرون شؤون الجزيرة، ويسهرون على أمنها واستقرارها. واشتهر كذلك أبو الخطاب عبد السلام بن منظور المزاتي، الذي كان تلميذا لأبي عبد الله محمد بن بكر. وقد انتقل رفقة شيخه الى منطقة "أريغ" في المغرب الأوسط، وأصبح ساعده الأيمن في ترتيب وتنظيم حلقات العلم. ثم عاد إلى جربة ، واستقر بها يعلّم ويوجه، ثم التحق بجبل نفوسة، ومنه إلى قلعة درجين. وفي الأخير عاد مرة أخرى إلى "أجلوا" قرب أريغ.[17]

وكان تبادل الزيارات بين المشائخ سنة حميدة حافظت عليها الجماعات الاباضية الى وقتنا الحالي. ففي الفترة التي نؤرخ لها نجد العديد من الشواهد التي تؤكد ما قلناه. فقد غادر وفد من العلماء جربة متجها إلى المغرب الأوسط فيه أبو الربيع سليمان بن يخلف، حيث نزلوا بـ "أسوف" فمكثوا فيها مدة من الزمن ثم ارتحلوا إلى "وارجلان"، واجتمعوا مع مشائخها وطلبتها. ويبدو أن هذا الوفد كان كبير العدد حتى قال قائل: "لم يجتمع في أهل الدعوة من الأخيار مثلما اجتمعت في هذه المرة في بلد من البلدان"[18].

وفي كل هذه الزيارات كانت تلقى دروس المواعظ والفقه والتفسير. فمسجد أبي صالح جنون بن يمريان في وارجلان كان منبرا للعلم والنقاش. وكان أبو صالح يتكفل بكل عالم زائر طيلة اقامته بالمدينة مثلما حدث مع أبي نوح سعيد بن زنغيل عندما قدم إلى وارجلان، حيث أجرى عليه الأرزاق حتى يتفرغ لحلقة الدرس. فكانت جماعة وارجلان تجتمع عنده بمسجد "جنون" ، فمنهم المستفيد من علمه ومنهم المتبرك بمشاهدته، ومنهم المشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه.[19]

وتجدر الاشارة إلى أن موسم الحج كان فرصة للمشايخ في المغرب الأوسط لزيارة اخوانهم من أهل الدعوة في بلاد الجريد وجربة وجبل نفوسة. فقد ذكر أبو زكريا أن قافلة من الحجاج فيها سليمان بن موسى الزلفيني وعبد السلام بن عمران النكسي ومحمد بن عيسى بن ابراهيم عرجوا على الجزيرة أثناء عودتهم من الحج، وأقاموا بها أياما يستفيدون من علم مشائخها الجزيرة[20] وهذا وفد آخر من وارجلان يرأسه عمران بن زيري ينتقل إلى جربة في زمن أبي زكريا فصيل بن أبي مسور لنفس الغرض[21].

وهكذا ظل الاتصال الثقافي بين المنطقتين تارة يكون كثيفا وتارة ضعيفا تبعا للظروف الأمنية. وقد حاول العلماء في هذه المرحلة التي نؤرخ لها، وفي مختلف مناطق المغرب العربي أن يوحدوا التعليم بينهم. وكانت نفوسة سباقة في هذا الميدان، فكان مشايخها ينتقلون تارة إلى جربة وتارة أخرى إلى وارجلان، وأحيانا إلى وادي ميزاب.

فعندما انتقل الاباضية من وارجلان إلى وادي ميزاب مع بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) جاءت وفود من جربة أغلبهم من أهل العلم. وهناك في الوقت الحاضر عائلات كثيرة لازالت تحتفظ بنسبها مثل: آل الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي في غرداية، وعائلة آل ويرو من مليكة بجربة، مثلما هو الشأن لآل بارون من نفوسة بجربة. وكان اباضية وادي ميزاب يعتمدون على مؤلفات اخوانهم الجربيين. وكانت قراهم حافلة بدور الضيافة المخصصة للوافدين من كل المناطق. وقد أوجد نظام العزابة أوقافا دائمة للتكفل بهم.[22]

وفي العديد من المرات نجد اباضية المغرب الأوسط يستنجدون باخوانهم في جربة ونفوسة لامدادهم بالعلماء والفقهاء، والشواهد كثيرة في مصادرهم، ومن مظاهر التبادل الثقافي كذلك قيام علماء وادي ميزاب باستنساخ المخطوطات الجربية، ونشرها بين مختلف مواطن الاباضية للاستفادة منها، وهذه العملية مازالت مستمرة إلى يومنا هذا.

ومهما يكن من أمر فان العلاقات الثقافية بين أباضية جزيرة جربة وأباضية المغرب الأوسط كانت علاقات وطيدة. وكانت الزيارات جماعية حتى أننا نجد المصادر تردد كثيرا عبارة "سنة الزيارة" . والدليل على كثرة الزيارات ما رواه الوسياني حيث قال : "قال أبو الربيع طلعنا مع أبي عبد الله إلى وارجلان زائرين في جماعة كثيرة، وفينا قبائل أهل الدعوة بأجمالهم حتى جعل ببعض الطريق أبو عبد الله (محمد بن بكر) على كل قبيلة منهم عريفا وسفيرا يرعاهم ويتفقد أمورهم خوفا مما يحدثون في وارجلان"[23] وتجدر الاشارة إلى أن هذه الزيارات كان يترأسها العزابة، يدورون فيها على الأحياء يعلمون ويفقهون وينهون عن المنكر، ويجمعون الصدقات والتبرعات لتمويل نظام العزابة[24].

ومن مظاهر التبادل الثقافي كذلك المراسلات التي تتم بين العلماء. وأغلب هذه الرسائل كانت تحمل أسئلة يطلب فيها صاحبها فتاوى. وتكثر هذه الرسائل خاصة إذا وقع خلاف حول مسألة ما فيتم الاتصال بأغلب وجوه الاباضية.

وفي الأخير نقول أن موضوع العلاقات الثقافية بين أباضية جربة وأباضية المغرب الأوسط يحتاج إلى دراسة علمية أكاديمية وافية. وما هذا الموضوع إلا للفت انتباه الباحثين المهتمين بهذا الميدان.

الهوامش :

1 ـ أنظر: السير، المطبعة العلمية، تونس، (طبعة حجرية) ، ص 50.

2 ـ عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال أفريقيا في مرحلة الكتمان، عمان، 1982، ص 22 .

3 ـ مراحل الامامة عند الاباضية هي كالتالي: مرحلة الكتمان عندما يكونوا في حالة ضعف امامة الدفاع عندما يدخلون في قتال، وامامة الظهور عندما يتمكنوا من تأسيس دولة.

4 ـ حملة العلم الخمسة أو حملة العلم المغاربة هم أعضاء البعثة التي أرسلها الداعية سلمة بن سعد إلى البصرة للتتلمذ على امام المذهب ابي عبيده مسلم بن أبي كريمة وتكونت من: عبد الرحمن بن رستم، عاصم بن جميل السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وأبي داود القبلي النفراوي . أنظر: الشماخي: السير، طبعة حجرية، قسنطينة (د.ت) ، ص 132 ـ 134 .

5 ـ علي يحي معمر : الاباضية في تونس، دار الثقافة، بيروت 1966 ، ص 48.

6 ـ هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي أسس امامة اباضية في طرابلس (140 ـ 144هـ) (757 ـ 761 م) ، واستولى على القيروان باخراجه لقبيلة ورفجومة الصفرية منها. أنظر: ابن خلدون : كتاب العبر، القاهرة 1957 ، مج11 ص 224 .

Tadeusz lewicki: La repartition géographique des groupements ibadites dans l'afrique du nord au moyen âge, Rocznik orientalistyczny T21, 1957, P308 .

7 ـ ابن سلام : الاسلام وتاريخه من وجهة نظر اباضية، تحقيق ر. ف. شفارتز وسالم بن يعقوب دار اقرأ، ط1 ، بيروت 1985 ص 158 ـ 159 .

8 ـ عوض خليفات : النظم الاجتماعية، ص 22.
9 ـ مسعود مزهودي : الاباضية في المغرب الأوسط (296 ـ 442 هـ) رسالة ماجستير، جامعة القاهرة 1988 ، ص 230 .
10 ـ ابو العباس الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة (د.ت) ج 2 ، ص 409 .
11 ـ نفس المصدر ، ج2 ص 336 .
12 ـ فرحات الجعبيري : نظام العزابة عند الاباضية الوهبية في جربة، المطبعة العصرية، تونس 1975، ص 79.
13 ـ الدرجيني : المصدر السابق، ج 2ص 353 .
14 ـ نفسه ص 365 .
15 ـ أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر تونس 1985 ، ص 269 .
16 ـ علي يحي معمر : الاباضية في تونس ، ص 107.
17 ـ نفسه ص 109 ـ 110 .
18 ـ ابو زكريا : كتاب السيرة، ص 269.
19 ـ عمرو خليفة النامي: ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري، الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، وارجلان، الاصالة عدد 42 ـ 43 سنة 1977 ، مطبعة البعث قسنطينة 1977 ص 19.
20 ـ ابو زكريا : كتاب السيرة، ص 273 .
21 ـ الجعبيري : نظام العزابة، ص 179 .
22 ـ علي يحي معمر : الاباضية في الجزائر، مكتبة وهبه، ط1 ، القاهرة 1979، ص 306 ـ 308 .
ـ حمو محمد عيسى النوري : دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار الكروان باريس 1984 ، ص 60 ـ 63 .
23 ـ الوسياني : السير (مخطوط) ج2 ورقة 321 .
24 ـ الشماخي : السير، ص 407، ابو زكريا : كتاب السيرة ص 357 .

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
المطبعة الجهوية بقسنطينة